إحياء الأسلوب القديم

الشدياق

الأستاذ شفيق جبري

في مقدمة كتابه الخالد : أمراء البيان ، تتبّع الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، نضّر الله عظامه ، أساليب البيان في مجامع عصوره ، فلم يغفل عن وصف هذه الأساليب في الجاهلية والإسلام ، ولم يفته الكلام على أسلوب القرآن ، ثمّ انتقل الى الكلام على الأطوار التي تقلّب فيها الأسلوب حتى انتهى إلى الكلام على إحياء الإسلوب القديم في عصرنا على يد الإمام محمد عبده بمصر وأحمد فارس الشدياق بالشام والآستانة ، ولا يستطيع الخوض في مثل هذا الموضوع الدقيق إلاّ من طال نظره في أدبنا ووقف على هذا الأدب وقفة المتبصّر .

إذا لم يكن لي نصيب من دراسة آثار الإمام محمد عبده فقد كان لي نصيب من دراسة آثار أحمد فارس الشدياق ، ولست أدري لماذا لم أطبع كتابي عنه حتى هذا اليوم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يخطىء الذين يرون أن للشدياق فضلاً كبيراً في إحياء الأسلوب العربي الأصيل ، ولا ريب في أن الذي أعانه على هذا الإحياء إنما هو تبحّره في اللغة ، ودفاعه عنها ، وولعه بها ، فقد حمل لواء اللغة كل حياته ، فما جاء ذكرها في موطنٍ من مواطن كتاباته إلا أضاف إليها صفة الشرف والجلالة فقال : لغتنا الشريفة ... لغتنا الجليلة ...

وإني أرى أن البحث عن لغة الشدياق يستلزم مقالاً خاصاً ، وحسبي الإشارة في هذا المقام الى تفقّهه في اللغة ؛ فاللغة في رأيه عبارة عن حركات الإنسان وأفعاله وأفكاره ، فقد كان يجد لكل حركةٍ من هذه الحركات ولكل فعلٍ من هذه الأفعال ولكل فكرٍ من هذه الأفكار اللفظة المناسبة التي تعبّر أوضح تعبير ، وإن كان في بعض الأحيان يضع ألفاظاً لم تعش في لغة هذا العصر . من هذا القبيل استعمال المثاعب بدلاً من مجاري الماء ، ولكن لفظة المجاري غلبت على المثاعب ولا نجد في هذا العصر من يستعمل في كتاباته لفظة المثاعب ، وكذلك استعماله للمناصع وهي المواضع التي يُتخلّى فيها لبولٍ أو حاجةٍ . والخلاصة ان بعض ألفاظه التي وضعها لمعنى خاص لم تعش كلها ، ولكن هذا قليل جداً ، فقد أحيا الشدياق طائفةً من مفردات بقايا الفصاح كما أحيا طائفة من الجمل ، كل هذا قد أعانه على إحياء الأسلوب العربي الأصيل . على أني أرى أن التبحّر في اللغة وحده لا يكفي لإحياء الأسلوب العربي الأصيل ، فإنّا نعرف بعض علماء اللغة في عصرنا لم يفتهم حفظ اللغة ولا فاتتهم معاني المفردات لكن الله تعالى حرمهم حسن الأسلوب ، فقد أنعم عليهم بمعرفة اللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحدها ، أمّا الشدياق فقد أضاف إلى إحاطته باللغة وأسرارها محاسن الأسلوب ، فهو لم يقتصر على معرفة اللغة ولكنه أكمل هذه المعرفة بحسن التصرف فيها وحسن التعبير عمّا يجول في الخاطر وتقع عليه العين وتسمعه الأذن وتلمسه اليد ، فما غفل الشدياق عن إدراك شأن الأسلوب فإنه يرى أن لكل مؤلفٍ أسلوباً ، وأنه لايمكن لأحدٍ أن يعجب الناس كلهم إذ الأهواء متفاوتة والآراء مختلفة ، فإذا كان الشدياق قد أحيا أسلوب أدبنا الأصيل فقد أحياه بتمكنه من اللغة وبقوة أسلوبه ، أمّا اللغة فحسبه أن يكون إماماً فيها أعطته أسرارها وخصائصها فأحسن استعمالها في مواضعها ، وأمّا الأسلوب فقد امتاز اسلوبه بالقدرة على الوصف ، فلم يعجز عن وصف شيء مما تقع عليه العين ، وإذا وصف ما يرتبط بعض الارتباط بالعلم فإنه يُخلي أسلوبه من التزويق ويميل الى الوضوح والدقة والبساطة . والخلاصة انه برز في الوصف كل التبريز ، وصف الزمان والمكان والهيئات والحركات والبواطن والظواهر .

على أني أرى أنه لا يتمّ الكلام على إحياء الشدياق الأسلوب العربي الأصيل الاّ بالخوض في خصائص أسلوبه نفسه وما اشتمل عليه هذا الأسلوب من التشابيه والألفاظ والتراكيب وتقطيع الجمل والعصبية والسرعة والهدوء وغير ذلك من الخصائص ، ولكن هذه الأمور كلها اذا لم توضّح أكمل توضيح ولم يؤت باستشهاداتٍ عليها فإنها لا تفصح عن عظمة الشدياق أكمل الإفصاح ، الاّ أن توضيحها يستلزم مقالاً خاصاً . وإذا كان هذا المقال الوجيز لا يتسع لبيان ما ذكرت فإني أستطيع أن ألخّص قاعدة الشدياق في كتاباته . إن هذه القاعدة تنحصر في هذه العبارة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لكل مقام مقال ، ومذهبه في هذا الأمر مذهب بلغاء كتابنا في القديم وعلى رأسهم الجاحظ .

فإذا كان الأستاذ الرئيس محمد كرد علي قد أشار الى أحمد فارس الشدياق في مقدمته البليغة وقال إنه أحيا الأسلوب القديم فلم يكن في إشارته شيء من الغلوّ ، ففي قوله الصواب كله .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net